



6 مايو 2010

كتب: بقلم: مصطفى كمشيش

إن المتأمل لأحوالنا العامة (السياسية والاقتصادية والاجتماعية)، ويقارنها بما كانت عليه منذ سنوات ليست بعيدة؛ يرى ارتباكًا شديدًا في منظومة القيم، فالعدو أصبح صديقًا، والصديق والأخ والجار صار عدوًا، نبنى جدًّا لنمنع دواءً وحليًّا عن الصديق لإجباره على القبول بما نراه.

مصطفى كمشيش

نعيب على نفق تحت الأرض أقامه الصديق، دون أن نتألم ونتساءل: وما الذي أجبر الأخ والصديق أن يقنات طعامة منا عبر نفق تحت الأرض؟ ومن الغرائب أن نرى فئاتًا مجاهدًا طيلة حياته بين أحضان الفئانات وهو يتلبس الآن نوب الوطنية فيهاجم الجار الأخ والصديق ويهاجم جهاده، ويصيغ لنا قيمًا!.

ومن الغرائب أن نرى على أرض مصر سلسلة محال تسمى (drinks) لبيع الخمر جهازًا عيانيًا طيلة اليوم، وبل وتسليم للمنازل، بينما نرى الخمر لا تُباع في أمريكا وأوروبا لمن هم أقل من 18 سنة، وإذا سألت عن سبب الترخيص لهذه السلسلة أجابوك: إنها السياحة، وقد رصد الأخ العزيز هينم أبو خليل في مقالته الرائعة ( بيعة مصر.. في صحة من؟) 28 فرعًا في القاهرة والإسكندرية في غير الأماكن السياحية!! التي لا تكاد تجد فيها أنثرًا لهذه المحال، ومن الغرائب أن يُعتقل الشرفاء أصحاب القيم، ويتم تكريم الفاسدين منزوعي القيم، وأن يتم إغلاق شركات أسسها أصحابها من حر مالهم، بينما يتم التغاضي عن ناهبي البنوك وسارقي المال العام!! والأغرب أن تجد إعلًا وأبواقًا تدافع عن البطش والاستبداد والظلم والفساد والرذيلة بينما يُحارب دعاة الحق والخير والحرية!!

وإذ نرى بريئًا مظلومًا سجينًا، ونرى وطنيًّا شريفًا مضطهدًا، لكننا في المشهد نفسه نرى جاسوسًا حترًا طليقًا، ونرى فاسدًا عزيزًا مكرمًا، ونرى مستبدًا محاطًا بهالات الوقار والتكريم والرفعة!!، وكأن "الجنون" هو الذي يسود عالمنا، إذ يحكم بعض الناس على الصواب أنه خطأ وعلى الخطأ أنه صواب، في اختلال كبير لمنظومة القيم، ولعل ما صاغه الراحل الكبير توفيق الحكيم في رائعته "نهر الجنون" نمثل أبلغ تصوير لهذا الاختلال، وهي مسرحية قصيرة من فصل واحد، أترك القارئ الكريم معها، وليستنتج منها ما يشاء، ويسقط أحداثها على من يشاء، وسيرى كيف يتطابق الواقع (السياسي والاجتماعي والاقتصادي والإعلامي والقيمي بل وحتى شكل المرور في الشوارع) في معظم مفرداته مع جوهر هذه المسرحية، وإليكم ملخص لها:

الملك ووزيره منفردان في بهو من قصر الملك، الملك مخاطبًا وزيره: ما نقص عليّ مريع! الوزير: قضاء وقع يا مولاي، الملك في دهش وذهول: (الملكة أيضًا) شربت من ماء النهر؟ الوزير: كما شرب أهل المملكة أجمعين، الملك: أين رأيت الملكة؟ الوزير: في حديقة القصر، الملك: ما كان ينقص الخطب إلا هذا! الوزير: لقد حذرنا مولاي أن تقرب ماء النهر وأوصاها أن تشرب من عصير العنب، لكنه القدر! الملك: قل لي كيف علمت أنها شربت من ماء النهر؟ الوزير: سيماؤها، حركاتها، إذ لم أكد أن أقبل عليها حتى ابتعدت عني في شبه روع، كذلك فعلت وصائفها وجواربها، وطفقن يتهايمن وينظرن إليّ نظرات غريبة، الملك: كل ذلك رأيته في رؤياي، إذ رأيت النهر أول الأمر في لون الفجر، ثم أبصرت أفاعي سوداء قد هبطت فجأة من السماء وفي أنيابها سم تسكبه في النهر فإذا هو في لون الليل، وهتف بي من يقول: حذار أن تشرب بعد الآن من نهر الجنون، الوزير: ويا! الملك: وقد رأيت

الناس كلهم يشربون.. الوزير: إلا اثنين.. الملك: أنا وأنت.. الوزير: وافرحناه، الملك: علام الفرح أيها الرجل، وقد أصيبت الملكة، الوزير مستدركًا: عفوًا مولاي، إن حزني لعظيم، ليتني كنت فداء الملكة، الملك: نعم، أنت دائمًا تردد ما أقول ولا تفعل شيئًا، عليّ برأس الأطباء! لعله يجد لها دواء.. الوزير: مولاي نسي أن رأس الأطباء كان من الشاربين من النهر.. لقد رأيتك كذلك بين يدي الملكة وقد تغيرت نظراته وحركاته، وكلما لمحتني هز رأسه هزًا، لا أدرك له معنى، الملك: رأس الأطباء قد جن؟!.. الوزير: وفي وقت نحن أحوج ما نكون إلى علمه وطبه، الملك: ليس في هذه المملكة الآن غير واحد يستطيع إنقاذنا مما نحن فيه، الوزير: من يا مولاي؟ الملك: كبير الكهان، الوزير: واحسرتاه! الملك: ماذا؟ الوزير: لقد شرب من النهر أيضًا يا مولاي، الملك: هذا ولا ريب ما يسمى بالخطب الجلل! حتى كبير الكهان أصيب بالجنون وهو أحسن الناس رأيًا وأبعدهم نظرًا وأثبتهم إيمانًا وأطهرهم قلبًا وأدناهم إلى السماء! إنها لكارثة شاملة، ليس لها من نظير لا في التواريخ ولا في الأساطير، مملكة بأسرها قد أصابها الجنون دفعة واحدة ولم يبق بها ناعم بعقله غير الملك والوزير!

- في مشهد آخر، تجلس الملكة ومعها رأس الأطباء وكبير الكهان، الملكة: إنه لخطب فادح! كبير الكهان: أجل إنها لطامة كبرى! الملكة لرأس الأطباء: أما من حيلة للطلب في رد نور العقل إلى هذين البائسين.. رأس الأطباء: لقد تفكرت مليًا يا مولاي، إن ما أصابهما لا يسعه علمي، الملكة: أأقنط إذن من شفاء زوجي، رأس الأطباء: لا تقنطي يا مولاي، هنالك معجزات تهبط أحيانًا من السماء هي فوق طب الأطباء. الملكة: يا كبير الكهان استنزل لي واحدة منها الآن.. الآن.. الآن.. كبير الكهان: إن السماء يا مولاي ليست كالنخيل يستطيع الإنسان أن يستنزل منها ما شاء من ثمار! الملكة: ألا تستطيع إذن أن تصنع شيئًا. إنني زوجة تحب زوجها، إنني امرأة تريد إنقاذ رجلها، أنقذوا زوجي، أنقذوا زوجي! رأس الأطباء: بعض الصبر يا مولاي.. الملكة: احذروا أن يعرف الناس الخبر، كبير الكهان: نحن أصمت من قير يا مولاي غير أنني أخشى عاقبة الأمر، إننا مهما أخفينا الخبر لا بد أن يظهر يومًا من الأيام، وأي مصيبة أفدح من علم الناس بأن الملك والوزير قد أصابهما الجنون الملكة: ما المخرج؟ لا تقفا من الأمر موقف اليائس. افعلنا شيئًا، كبير الكهان: لو أن في مقدوري فهم ما يدور برأسه، الملكة: إنه يذكر النهر في فرح ويزعم أن ماءه مسموم، كبير الكهان: وماذا يشرب إذن؟ الملكة: عصير العنب ولا شيء غيره، رأس الأطباء: يغلب على ظني أن الإدمان قد أثر بعقله، الملكة: إن كان الداء فيما تقول فما يسر الدواء: تمنع عنه هذا العصير رأس الأطباء: وماذا يشرب؟ الملكة: ماء النهر، رأس الأطباء: أنتحسبته يرضى يا مولاي؟ الملكة: أنا أحمله على ذلك، رأس الأطباء: يلتفت إلى صوت قريب ها هو ذا الملك قادم، الملكة تشير إلى رأس الأطباء وكبير الكهان: اتركونا وحدنا، الملك يتأملها في حزن: ويل! إن قلبي يتمزق، لو تعلمين مقدار ألمي أيتها العزيزة، الملكة تتأمله لحظة في إشفاق: اجلس إلى جانبي على هذا الفراش ولا تحزن كل هذا الحزن، لقد آن لهذا الشر أن يزول عنا، الملك: ماذا تقولين؟! الملكة: نعم ثق أنه سيرزول، الملك يتأملها بدهشة: إنك تحسين ما حدث؟! الملكة: كيف لا أحس أيها العزيز وهو يملأ نفسي أسى، الملك ينظر إليها مليًا: هذا عجيب! الملكة: لماذا تنظر إليّ هذه النظرات! الملك متوسلاً في إشفاق: أيتها السماء! الملكة: تدعو السماء؟ لقد استجابت السماء! الملك: ماذا أسمع..؟ الملكة: في فرح لقد وجدنا الدواء، الملك: وجدتم الدواء؟ متى؟! الملكة: في فرح: اليوم، الملك في حارة: وافرحناه..! الملكة: نعم وافرحناه! إنما ينبغي لك أن تصغى إلى ما أقول وأن تعمل بما أنصح لك به، يجب عليك أن تغلق من فورك عن شرب عصير العنب وأن تشرب من ماء النهر، الملك ينظر إليها وقد عاد إلى بأسه وحزنه: ماء النهر! الملكة بقوة: نعم، الملك كالمخاطب نفسه: وبحي أنا الذي حسب أن السماء قد استجابت!! الملكة في قوة: اصغ إليّ واعمل بما أقول، الملك يخرج سريعًا: أيها الوزير! عليّ بالوزير! الوزير يدخل من باب آخر متغير الوجه: مولاي! مولاي! الوزير: جئتك بخير هائل، الملك: ماذا أيضًا؟ الوزير: أتدري ما يقول الناس عنا؟ الملك: أي ناس؟ الوزير: المجانين، الملك: ماذا يقولون؟ الوزير: يزعمون أنهم هم العقلاء وأن الملك والوزير هما المصابان... الملك في تهكم حزين: نحن المصابان وهم العقلاء..! أيتها السماء رحماك! إنهم لا يشعرون أنهم قد جنوا، الوزير: صدقت الملك: يخيل إليّ أن المجنون لا يشعر أنه مجنون، الوزير: هذا ما أرى. الملك: إن الملكة واحسرتاه كانت تحدثني الآن وكأنها تعقل ما تقول، بل لقد كانت تبدي لي الحزن وتسدي إليّ النصح، الوزير: نعم، نعم. كذلك صنع بي كل من قابلت من رجال القصر وأهل المدينة، الملك: أيتها السماء رفقًا بهم! الوزير في تردد: وبنا، الملك متسائلًا في دهشة: وبنا؟! الوزير: مولاي! إنني أريد أن أقول شيئًا، إنهم.. الملك: من هم؟! الوزير: الناس، المجانين، إنهم يرموننا بالجنون، ويتهامسون علينا ويتآمرون بنا، ومهما يكن من أمرهم وأمر عقلم فإن الغلبة لهم، بل إنهم هم وحدهم الذين يملكون الفصل بين العقل والجنون؛ لأنهم هم البحر وما نحن إلا حيتان من رمل، أسمع مني نصحاء يا مولاي؟ الملك: قل، الوزير: هلم نصنع مثلهم ونشرب من ماء النهر! الملك: ينظر إلى الوزير مليًا: أيها المسكين! إنك قد شربت! أرى شعاعًا من الجنون يلعب في عينيك، الوزير: كلا لم أفعل بعد، الملك: أصدقني القول، الوزير في قوة: أصدقك القول، ولكنني سأشرب، وقد قررت أن أصير مجنونًا مثل بقية الناس، إنني أصيبك ذرغًا بهذا العقل بينهم، الملك: تطفئ من رأسك نور العقل بيديك! الوزير: نور العقل! ما قيمة نور العقل في وسط مملكة من المجانين! ثق أنا لو أصررنا على ما نحن فيه لا نأمن أن يثبت علينا هؤلاء القوم، إنني لأرى في عيونهم فتنة تضطرم، وأرى أنهم لن يلبثوا حتى يصيحوا في الطرقات (الملك ووزيره قد جئا، فلنخلع المجنونين!) الملك: ولكننا لسنا بمجنونين، الوزير: إنك قد قلتها الساعة يا مولاي! أن المجنون لا يشعر أنه مجنون، الملك صائحًا: ولكنني عاقل وهؤلاء الناس مجانين! الوزير: هم أيضًا يزعمون هذا الزعم، الملك: وأنت، ألا تعتقد في صحة عقلي؟ الوزير: عقيدتي فيك وحدها ما نفعا؟ إن شهادة مجنون لمجنون لا تعني شيئًا، الملك: ولكنك تعرف أنني لم أشرب قط من ماء النهر، الوزير: أعرف، الملك: وأني قد سلمت من الجنون لأنني لم أشرب، وأصيب الناس لأنهم شربوا، الوزير: هم يقولون بأنهم إنما سلموا هم من الجنون لأنهم شربوا وأن الملك إنما جُن لأنه لم يشرب، الملك: عجبًا! إنها لصفاقة وجه، الوزير: هذا قولهم وهم المصدقون، وأما أنت فلن تجد واحدًا يصدقك! الملك: وهكذا يستطيعون أيضًا أن يجترئوا على الحق؟! الوزير: الحق؟ يخفي ضحكة!! الملك: أنضحك؟! الوزير: إن هذه الكلمة منا في هذا الموقف غريبة، الملك في رجفة: لماذا؟ الوزير: الحق والعقل والفضيلة، كلمات أصبحت ملكًا لهؤلاء الناس أيضًا، وهم وحدهم أصحابها الآن.

بل تتذكر الآن أيها القارئ الكريم تصريحات بعض قيادات الحزب الوطني الحاكم وأجهزة إعلامه؟

(الملك: وأنا؟ الوزير: أنت بمفردك لا تملك منها شيئًا، الملك يطرق في تفكير وصمت، ثم يرفع رأسه أخيرًا: صدقت إنني أرى

حياتي لا يمكن أن تدوم على هذا النحو، الوزير: أجل يا مولاي، وأنه لمن الخير لك أن تعيش مع الملكة والناس في تفاهم وصفاء، ولو منحت عقلك من أجل ذلك ثمناً! الملك في تفكير: نعم إن في هذا كل الخير لي، إن الجنون يعطيني رغد العيش مع الملكة والناس كما تقول، وأما العقل فماذا يعطيني! الوزير: لا شيء، إنه يجعلك منبوذاً من الجميع، مجنوناً في نظر الجميع! الملك: إذن فمن العقل أن أختار الجنون! الوزير: هذا عين ما أقول، الملك: ما الفرق إذن بين العقل والجنون! الوزير: (وقد بوغت) انتظر... يفكر لحظة: لست أتبين فرقاً! الملك في عجلة: عليّ بكأس من ماء النهر!!

-----  
[mkamshish@hotmail.com](mailto:mkamshish@hotmail.com) \*

[www.ikhwanonline.com/64390](http://www.ikhwanonline.com/64390)